

الاتجاه المعجمي نحو ترسيم العربية

د. زغوان أحمد

جامعة سعيدة - الجزائر -

الملخص:

إن مرحلة الاتجاه المعجمي تعد امتدادا تكميليا أو خطوة تالية في مشوار بدأه جمعة اللغة بانتشارهم في البوادي لتأثر المادة اللغوية، والتحقق من سلامتها اللغوية، وعافيتها اللفظية، وأخذ المشوار صورتين متغيرتي الاتجاه ولكن مآل النتيجة كان بالنهاية واحدا، وتجلّى ذلك في رحلة أهل اللغة نحو البوادي، وفي رحلة أخرى قام بها الأعراب أنفسهم نحو الحواضر، ثم توجت مرحلة الجمع تلك بفرز المواد اللغوية الواردة عن بيئات لهجية مختلفة، وطفق اللغويون في تحقيق تلكم الحامة اللغوية وظيفيا، وأخذ البحث ككل يخرج من شكله شبه الارتجالي إلى طابع العلمية والمنهجية، ومن غلبة الرواية إلى الدراية، ومن نفس التعميم إلى التخصص والتخصيص.

Abstract

The stage direction lexical is an extension of a complementary or a next step in the journey begun by F Language Pantcarhm in the countryside of the affected material language , check the integrity of the language , and well-being verbal , and take the journey two Mtagaerta direction , but the fate of the result was ultimately one , and was manifested in the journey the people of the language about the countryside , and another trip made by the Bedouins themselves towards urban , then culminated stage combining those sort materials linguistic incoming environments methodology different , screaming, linguists in achieving telecom raw language and functionally , and took the search as a whole out of shape semi-improvisational to the character of the scientific and methodological , and the predominance of the novel to know , and the same generalization to specialization and customization.

تمثل هذه المرحلة امتدادا تكميليا أو خطوة تالية في مشوار بدأه جمعة اللغة بانتشارهم في البوادي لتأثر المادة اللغوية، والتحقق من سلامتها اللغوية، وعافيتها اللفظية، وأخذ

المشوار صورتين متغايرتي الاتجاه ولكن مآل النتيجة كان بالنهاية واحدا، وتجلى ذلك في رحلة أهل اللغة نحو البوادي، وفي رحلة أخرى قام بها الأعراب أنفسهم نحو الحواضر. بعد هذا كله توجت مرحلة الجمع تلك بفرز المواد اللغوية الواردة عن بيئات لهجية مختلفة، وطفق اللغويون في تحقيق تلكم الخامة اللغوية وظيفيا، وأخذ البحث ككل يخرج من شكله شبه الارتجالي إلى طابع العلمية والمنهجية، ومن غلبة الرواية إلى الدراية، ومن نفس التعميم إلى التخصص والتخصيص، ويمكن هنا ملاحظة : أن التوجه العلمي سار في وجهتين متوازيتين :

الأولى تتعلق بالراوي للمادة اللغوية باعتباره مصدرا لها ومتكلما بها، ولهذا شاع في أدبياتهم ما عرف بالعرض والمشافهة والتلقي، وطريقتهم هاته أقرب إلى ما عرف عند المحدثه بالتحقق من السند باعتبار رجاله.

والثاني: يتعلق بالمادة ذاتها والتي يتأدى من خلالها إلى التأصيل لمعيارية الصواب اللغوي في وجه تيارات اللحن الزاحف بفعل الاختلاط والثاقف، وذلك أشبه - أيضا - بما تناسل عند المحدثه من حديث حول المتن، وأساليب ترتيب المادة وتحقيقها، وتصنيفها، وأوجه التعامل معها بحثيا للوصول إلى عالقتها معرفي وما يثيره عند المتلقين من إشكالات ناجمة عن مداليل المفردات والسياقات الناظمة.

◇ على المستوى الأول نرصد النقاط التالية :

1. النظر للغة من زاوية المتكلم اتساء بصنيع المحدثه في قولهم بالعدالة والثقة والتثبت والضبط .. وكأنهم جعلوا اللغة تقف في نفس الخط مع الحديث طالما هو عربي ووسيلة فقهاء عربية فعمدوا إلى محاولة إخضاع اللغة إلى نفس المعايير الحداثية إذ الوسيلة جزء من الغاية، فلم يتوسعوا في الأخذ عن غالب سكان الجزيرة العربية، وإنما افترضوا سلائية

قبائل عربية بعينها، وعذرية فطرها كونها تعيش عزلة حديدية تعصمها من الاختلاط بغيرها مما يعني أنها بمنأى عن فساد ألسنها، وطران عاديات اللحن على منظومتها اللغوية.

2. ثبوت الرواية عن العرب الفصحاء بسند موثق صحيح، وطرح ما عداهم ممن ليست لغاتهم حجة كالمحدثين مثلا، وإن حسن كلامهم، ورقت حواشيه، ومنهم جرير والفرزدق، وأبي نواس وبشار بن برد.. قال الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء " جلست إليه عشر حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي .. وليس ذلك لشيء إلا لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون.. ومثلوا لهذا الاستبعاد بأن قالوا : إنها مثل القدماء والمحدثين مثل رجلين ابتداء هذا بناء فأحكمه، وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا، وإن حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن " ¹.

3. وضع مصنفه للرواية يتربع على أعلى الهرم فيها الحافظ الذي يفترض أن يكون له باع طويل في المداءبة والملازمة للدرس والتحصيل وفقه اللغة، ويقال أن الأصمعي كان إذا سئل كيف حفظت، ونسي أصحابك؟ يقول: درست وتركوا، والحافظ يكون وصل درجة الإفتاء في مسائل اللغة والإملاء لمن طلب عنده الفتيا اللغوية . " وكان أبو علي يقول في " هيهات " : أنا أفتي مرة بكونها اسما للفعل " كَصَه " و " مَه " وأفتي مرة بكونها ظرفا على قدر ما يحضرنى في الحال، وقال مرة أخرى: إنها وإن كانت ظرفا فغير ممتنع أن تكون مع ذلك اسما سمي به الفعل، كعندك ودونك. وحدث أبو علي قال: قلت لأبي عبد الله البصري: أنا أعجب من هذا الخاطر في حضوره تارة ومغيبه أخرى، وهذا يدل على أنه من عند الله. فقال: نعم هو من عند الله إلا أنه لا بد من تقديم النظر " ².

" واشتروا للحافظ أن يكون عالما بلغة العرب، محيطا بكلامها، مطلععا على نثرها ونظمها، ويكفي في ذلك الآن الرجوع إلى الكتب المؤلفة في اللغات والأبنية، وإلى الدواوين الجامعة لأشعار العرب، وأن يكون خبيرا بصحة نسبة ذلك إليهم لئلا يدخل عليه شعر مولد

أو مصنوع عالما بأحوال الرواية ليعلم المقبول روايته من غيره، ويأجماع النحاة كي لا يحدث قولاً زائداً خارقاً" ³

4. توثيق المادة اللغوية " فقد روي عن محمد بن يزيد بن أبي المحلم قال : أنشدت يونس * أبياتا من رجز فكتبتها على ذراعه ثم قال لي: إنك لحياد بالخير " ⁴ وكان يعزز هذا التوجه هممة عالية، وحماسة شديدة، وتفاعل حميمي مع الموضوع يجعل صاحبه يستشعر أنه في طريق الخير، ومن يأخذ عنه يعتبره جيادا بالخير، وربما كان فرح بعضهم حال عثوره على ظاهرة لغوية تفوق فرحه بزوال شدته ومصابه ومن ذلك " ما يروى عن أبي عمرو بن العلاء وقد أخافه الحجاج قال فخرجت في الغلس أريد التنقل من الموضع الذي كنت فيه إلى غيره، فسمعت منشدا يقول :

رُبَّمَا تَكَرَّرَ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْرِ رَلَّهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ العَقَالِ ⁵

وسمعت عجوزا يقول: مات الحجاج فما أدري بأيها أسرّ أبقول المنشد "فرجة" بالفتح أم بقول العجوز: مات الحجاج؟ .. الفرجة في الأمر (بالفتح)، والفرجة بالضم في الحائط وغيره " ⁶.

5. الرحلة في طلب اللغة وفوائدها وغرائبها، وحفظ أشعار العرب، وأمثالها بقصد تكوين ملكة لغوية، وتحصيل رصيد نقدي علمائي، يؤهل صاحبه للفتوى اللغوية متى سئل. وفي هذه المرحلة من عمر الدرس اللغوي يمكن الإشارة إلى " رواد كل جيل من أجيال علماء اللغة خلال ازدهار عصر التأليف فيعد أبو الأسود بحق الرائد الأول في الدراسات اللغوية والنحوية باعتراف الجميع، وقد أخذ عنه أبرز علماء الجيل الأول وهم يحيى بن يعمر*، عنبسة الفيل، ميمون الأقرن، نصر بن عاصم.

أما عن " الجيل الثاني فقد برز عيسى بن عمر الثقفي (ت 149 هـ)، ومعاصره أبو عمرو بن العلاء. أما الجيل الثالث فكان على رأسه الخليل بن أحمد (ت 170 هـ)، ويونس بن

حبيب (ت 183 هـ)، وبرز في الجيل الرابع الكسائي (ت 197 هـ)، النضر بن شميل (203 هـ)، قطرب (206 هـ)، أبو عبيدة (ت 211 هـ)، أبو زيد الأنصاري (ت 215 هـ)، الأصمعي (ت 217 هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـ)، وقد أتى بعد هؤلاء جيل لاحق من رواده أبو حاتم السجستاني (ت 255 هـ)، المبرد (285 هـ)، ابن دريد (321 هـ) ⁷.

◊ أما في المستوى الثاني فقد تمت ترجمة ذلك عمليا من خلال طريقة التعاطي المنهجي مع المادة المعجمية، وآليات شحنها بالحمولة الدلالية القارة على نموذج استعمال محدد ضمن أنساق محتملة الأوجه والمعاني، وبيان ذلك كالآتي:

حدّ المعجم * أو القاموس: " كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها وتفسير معانيها على أن تكون المواد مرتبة ترتيبا خاصا إما على حروف الهجاء أو الموضوع، والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها، وشواهد تبين مواضع استعمالها ⁸

ويقال أعجمت فلانا أزلت عجمته، بإدخال همزة السلب على الفعل عجم، وكقولنا أشكيت فلانا أي أزلت شكايته. فيصبح الفعل نقيضا للوضع المعنوي الأول، ويعتبر المعجم شديد الصلة بالمباحث اللغوية، وتحقيق دوال المفردات وضبط معانيها حسبما تقتضيه دواعي الاستعمال على ألسنة الناطقين بها من أهلها.

وقد دلّ تفسير دلالات بعض معاني الألفاظ القرآنية، وشرح غريب الأحاديث النبوية عصر النبوة، وزمن الراشدين من خلفائه على الوجود العملي المؤسس لظهور المعجمات العربية على بساطتها، وتواضع مادتها إلا أن البدايات لن تكون إلا بدايات ..

كما أن الحاجة للمعجمات حتى هذا التاريخ لم تكن مطروحة في المجتمع العربي الذي لا يزال محتفظا بكامل عنفوانيته اللغوية، وهذا ما ترجمت عنه موسوعية ابن عباس الذي كان

يقوم بدور المعجم عندنا اليوم بحكم الإمام والإحاطة الموروثة عربيا صدر الملة حيث كانت جماهير المسلمين مثلا إذا استشكل عليهم أمر رجعوا به إلى أهله يسألونهم، وينهلون من علمهم.

وقد كانت المسائل اللغوية تعرض على عبد الله بن عباس (ت 68 هـ)، فيعمد إلى تخريجها في ضوء النصوص الشعرية لعلمه بديوان العرب، وأخبارها.. ومن سبيل هذا المعنى ما يؤثر عنه من احتجازه للمسائل التي بسطها بين يديه نافع بن الأزرق والتي أوصلها صاحب الإتيان إلى ثمانين مسألة التمس لها مصادقها كلها من كلام العرب وأشعارها.

" وصنيع ابن عباس هذا صنيع معجمي، فهو قد وقف على لغات العرب، ونوادرها وفصحها ودلالات مفرداتها، وأعان رسوخه في اللغة وعلمه بها أن يفسر للناس معاني الألفاظ تفسيراً لغوياً.. مما يجعله أول من حمل راية المعجم اللغوي العربي، وعلى نهج ابن عباس سار أبان بن تغلب بن رباح الجريري، أبو سعيد البكري مولى بن جبر بن عباد، وكنيته أبو أميمة وتوفي 141 هـ وكان قارئاً فقيهاً لغوياً إماماً ثقة عظيم المنزلة، روى عن علي بن علي بن الحسين وأبي جعفر، وأبي عبد الله عليهم السلام، وسمع من العرب وألف غريب القرآن وذكر شواهد من الشعر " ⁹.

وهكذا سار علماء اللغة في فترة تالية سيرة ابن عباس الذي احتفظ بحضوره في أعمالهم وهم يدلون عليه بطريقتهم تلك في التأصيل لعربية القرآن بنصوص الشعر العربي، ولهذا نرى ثلة من الرواد الأوائل يضرّبون في الأرض طولا وعرضا يتغنون جمع الكلام العربي من معانيه وأصوله غيرة على العربية وحبا فيها مثلما ذكرنا من أمر الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب الضبي، وخلف الأحمر، والكسائي وغيرهم ممن أنفقوا الأعمار، ووصلوا الليل بالنهار يتأثرون المادة اللغوية في مواطنها، وبين أهلها جمعا وبحثا، واستقصاء حتى راكموا ما يشبه الكشكولات، وإذا كان ابن عباس يسأل فيجيب دون تقييد بموضوع معين تبعا لطبيعة

السؤال، فإن العلماء بعده رسموا خطتهم في ضوء ما قام به أهل الحديث في " جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد كالمحدّث يجمع أحاديث الصلاة، وأحاديث البيع ويسمّيها كتاب البيع.. والذي دعا إلى هذا في اللغة على ما يظهر أنّهم رأوا كلمات متقاربة فأرادوا تحديد معانيها فدعاهم ذلك إلى جمعها في موضع واحد.. أو رأوا كلمات متقاربة اللفظ متقاربة المعنى.. أو رأوا كلمات واحدة وضعت لمعان مختلفة ففسّروها " ¹⁰ *

لقد كان مدار حركة التأليف في هذه الفترة إجمالاً على اللغة، وإن اتخذت عناوين، ومسميات مختلفة، ويعتبر أولئك الباحثون اللغويون هم الرواد الأوائل الذين يكتشفون المجاهيل، وهم بحق أسبق من فتح الطريق للتأليف المعجمي في اللغة " وأعلى من ألف في اللغة مقاما، وأعظمهم اضطلاعاً، وأكثرهم استيعاباً لكلام العرب وفهماً لمعانيه، ووقوفاً على أسراره، ونوادره، وغريبه، وفصحاه، وتعدّ مؤلفاتهم دائرة معارف عامة " ¹¹

وهناك شرطان لا بد من تحققهما في المعجمات: هما الشمول والترتيب، فالشمول فتحصيله أمر نسبي، أما الترتيب فلا مندوحة عنه، وإلا ذهب قيمة المعجم أدراج الرياح وفي هدي ما نذكره نحب أن نميز بين نوعين من الاتجاه الذي سارت عليه مدونات المعاجم: معاجم للألفاظ على تراتيب الحروف، ومعاجم الموضوعات أو المعاني التي تقرب إلى ما يعرف بالحقول الدلالية:

1 . معاجم الألفاظ: ورعيّ فيها:

أ) الترتيب الصوتي: وهو في جانبه الإجرائي دراسة صوتية رائدة حيث وضعوا للصوت منازل، ومدارج: الحلقي والذلقي والشفوي.. ويتم الترتيب تبعاً لمخارج الحروف، ويرى " الباحثون أن الخليل بن أحمد أسبق العرب إلى تدوين اللغة، وترتيب ألفاظها على حروف المعجم قبل الأصمعي وسيبويه، وسواهما من الأدباء والنحاة، وأنه الرائد الأول لعلم المعجمات بكتابه العين الذي حصر فيه مرّكبات حروف المعجم كلّها من الشائي والثلاثي

والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي، اعتمادا على النظام الصوتي ونظام التقلبيات، وسمي كتابه بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا، وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ، ومرحلة التقليل هذه التي ابتكرها الخليل سار عليها ابن دريد في جمهرة اللغة، وأبو علي القالي في البارع، والأزهري في تهذيب اللغة، والزبيدي في مختصر العين وابن سيده في المحكم¹²

وهكذا يعتبر الخليل أول الغيث الذي يمهد للانهيار فقد راعى منازل الحروف في الجهاز النطقي ورتبها تبعا لمخارجها الصوتية: [ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط ت د ظ ذ ث ر ل ن ف م و ي ا ء]، ثم أخذ في طريقته ابن فارس صاحب "مقاييس اللغة" الذي يقر باعتماده في تأليف معجمه على كتاب "العين" ضمن ما اعتمد من كتب ذكر منها كتابي "غريب الحديث" و"مصنّف الغريب"* لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـ)، وكتاب "المنطق" الذي تنتهي عنعنته لابن السكيت (ت 246 هـ) وكتاب "الجمهرة" لأبي بكر بن دريد (ت 321 هـ) ثم قال: هذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة، وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع إليها¹³

كما يعتبر التأليف وفق نظام القافية مرحلة أقرب صلة بالترتيب الصوتي، وتالية لنظام التقلبيات الخليلي الذي ينطلق من قلب حروف الكلمة الواحدة مع ملاحظة الفرق بينه وبين ما يعتمد فيه على ترتيب الكلمات حسب أواخرها كما في لسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، وكما في "القاموس المحيط للفيروز آبادي، أو الصحاح للجوهري وزعموا أنه أراد تيسير القافية على الشعراء، والسجع على الكتاب.. فهم في حاجة إلى الكلمات باعتبار أواخرها، وربما رأى الجوهري أن الفاء والعين لا تثبتان في موضع، ولا تبقيان على حال، أما اللام فثابتة فترك ترتيب الكلمات على أوائل الحروف لأن فيه متهيئة الباحث الذي لا يعرف التصريف والمجرد والمزيد"¹⁴

قال السيوطي تعليقا على هذه الفقرة ما نصه: " ثم ألف أتباع الخليل وأتباع أتباعه وهلم جرا كتبنا شتى في اللغة ما بين مطوّل ومختصر، وعام في أنواع اللغة كالأجناس للأصمعي (ت 215 هـ)، والنوادر واللغات لأبي زيد (ت 215 هـ)، والنوادر للكسائي والنوادر واللغات للفراء (ت 207 هـ) واللغات لأبي عبيدة معمر بنالمثنى (ت 208 هـ) والجيم والنوادر والغريب لأبي عمرو (ت 206 هـ)، وإسحاق بن مرار الشيباني (ت 210 هـ)، والتهذيب للأزهري (ت 370 هـ) والمجمل لابن فارس (ت 395 هـ) وديوان الأدب للفارابي (ت 339 هـ) والمحيط للصاحب بن عبّاد (ت 995 هـ) والجامع للقرّاز (ت 953 هـ)، وهذه المدونات - مثلما يقول ابن خلدون - : هي أصول كتب اللغة فيما علمناه ومن الكتب الموضوععة أيضا في اللغة كتاب الزمخشري (ت 538 هـ) في المجاز وسمّاه أساس البلاغة .. وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلا لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السّكيت (ت 244 هـ)، والفصيح لشعّلب (ت 291 هـ)، وغيرهما " ¹⁵.

(2) -الترتيب الأبجدي: " أقدم ترتيب عرفه العرب وهو (فينيقي) ولم يستخدم العرب في معاجمهم الترتيب الأبجدي، وإنما استعملوا الترتيب الصوتي والترتيب الألفبائي .. ويطابق هذا الترتيب ما جاء في أبجدية اللغة العبرية، والسريانية عدا (تخذ. ضغط) لعدم وجودها في لغتهم " ^{16*}

(3) - الترتيب الألفبائي: يراعى التشابه الكتابي للأحرف فيضع الثلاثيات متجاورة ثم الثنائيات، وينتهي بالأحرف المفردة بحسب أوائل الكلمات: أ. ب. ت. ث. (بعد التجريد وبدون تجريد)، مثل (أساس البلاغة) و (المقاييس) و (المجمل)، والمعاجم المعاصرة، ومنها ما يعتمد أواخر الكلمات (بتجريد وبدونه)، كمعاجم الصحاح، لسان العرب، القاموس المحيط، تاج العروس، وذلك أن دارسي اللغة لما رأوا " الترتيب عسيرا تبعوا

الترتيب الألفبائي .. وضموا الحروف المتشابهة على بعضها ليسهل حفظها.. وهذا الترتيب هو الذي اقتبسه الغرب عن العرب، والاتجاه اليوم يرمي إلى تسميتها: الأبتية¹⁷.

إن المعاجم وهي تؤسس لقواعد التوجيه اللغوي تنطلق من ضرورة مراعاة ضوابط الاستعمال في إشارة للأصل العربي الذي ليس لأحد أن يتجاوزه، فهي بذلك توطن لمعالم المعيارية اللغوية، ومثل هذه المعاجم "من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب، فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب"¹⁸.

ومن أمثلة ما يغدو شاهدا على مسائل اللغة، ومعيارا اعتباريا لدرجتها من القوة والضعف في الاستعمال نموذج نقد الخنساء لحسان بن ثابت في قوله:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وَلَدُنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَرَّرٍ فَأَكْرَمُ بِنَا خَالًا وَأَكْرَمُ بِنَا ابْنًا¹⁹

عابت عليه استعمال الجففات والأسياف وهما من جموع القلة، والأسياف ما دون العشرة واللمعان ليس ذاتيا وإنما هو مجرد انعكاس لغيره، وقال يقطرن ولو قال يجرين لكان أكثر اتساعا وإعمالا للسيف في الأعداء وإنكالا بهم، وفي الأخير لاحظت عليه افتخاره بمن ولد ولم يفتخر بمن ولدوه على عادة العرب.

ونظير ذلك من القرآن الكريم كلمة قوم من قوله تعالى ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ 11﴾ (الحجرات) "إنما يقال للرجال فإن كان معهم نساء قلت: (قوم)، وإن انفردن لم يقلهن (قوم)"²⁰.

ولهذا فاللغويون يحيلون على الاستعمال حال تعاطيهم مع المسائل اللغوية فهم نقليون اتباعيون، ولعل في قولهم نقل عن العرب، وقالت العرب، وسمع عنهم.. وغير ذلك من الصيغ التي نراها أيضا في مقالات النحاة التي منها: قولهم هذه أوزان سماعية، وما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب.. الخ

ففي الحالين يدور الحديث حول فكرة الاستعمال التي هي الأصل متى شئنا الدقة إذ اللغة كلها سماع، وحتى قولهم بالقياس فهو من وضع النحاة أجروه على الأصل واللسان. إن الاجتماع البشري هو ما يعطي للاستعمال معناه ومحداده، وفي الجهل بتراتبه ما يحمل على الإخلال بجملة التفاهم، أو توقع الخطأ حتى من لا يظن به ذلك لتبحره في علوم اللغة وطول باعه فيها، ومن سبيل هذا ما وقع فيه عبد القادر الجرجاني (ت 474 هـ) على جلالة قدره حين ربط خلاعة أبي نواس في شعره وجعلها من جنس قول المتنبي (ت 354 هـ) [من الخفيف]: يَرَشَّفَنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ = هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنْ التَّوْحِيدِ²¹. وعلق على البيت قائلاً: "والنفس تنبو عن زيادة القول عليه.. وقد اقتدى به بعض المتأخرين في هذه الإساءة، وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعت شهوة الإغراب إلى أن يستعير للهلزل، والعبث من الجد ويتغزل بهذا الجنس"²² أي من جنس الألفاظ الشرعية. لقد فات الجرجاني أن التوحيد هو ضرب من التمر بالعراق، وإليه نسب أبو حيان التوحيدي لأن أباه كان يبيعه²³، وأن سياق البيت لا يثي بالمعنى الذي أجراه عليه.

(ب). معاجم الموضوعات والمعاني:

يمكن أن نمثل لها بمؤلف الجيم للنضر بن شميل* (ت 203 هـ) الذي يلي مؤلف الخليل مرتبة من حيث الأهمية التأليفية والعلمية فهو "كتاب كبير يحتوي على عدة كتب: الجزء الأول: يحتوي على خلق الإنسان والجود والكرم وصفات النساء. والجزء الثاني يحتوي على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب والأمتعة. الجزء الثالث: للإبل فقط الجزء الرابع: يحتوي على الغنم والطير والشمس والقمر والليل والنهار والألبان والكمأة والآبار والحياض والأرشية والدلاء وصفة الخمر. الجزء الخامس: يحتوي على الزرع والكرم والعنب أو الغيث وأسماء البقول والأشجار والرياح والسحاب والأمطار وكتاب السلاح وكتب خلق الفرس. ومن سبيل هذا النوع من المعاجم معجم: معاني الشعر الكبير لابن قتيبة

الكوفي (ت 270 هـ)، ويحتوي على اثني عشر كتاباً منها كتاب الفرس ستة وأربعون باباً، كتاب الإبل ستة عشرة باباً، كتاب الحرب عشرة أبواب.. كتاب الديار عشرة أبواب، كتاب الرياح أحد وثلاثون باباً، كتاب السباع والوحوش سبعة عشرة باباً، كتاب الأيمان والدواهي سبعة أبواب، كتاب النساء والغزل باب واحد، كتاب الشيب والكبر ثمانية أبواب، كتاب تصحيف العلماء باب واحد " 24 .

وظل هذا الضرب من التأليف هدياً متبعاً يسير عليه الخلف من العلماء اقتداءً بالقدماء، ونسجاً على منوالهم، ففي القرن الخامس يطلع علينا الثعالبي (ت 430 هـ) بمدونته فقه اللغة وخصائص العربية، واتبع فيها ذات المنهج حيث سنجد في كل باب من أبواب كتابه فصولاً يدرج تحت كل فصل منها ما يتصل به دلاليًا، فلو تصفحنا "الباب السادس والعشرون" مثلاً يطالعنا بفصول "في الأرضين والرمال والجبال والأماكن وما يتصل بها وما ينضاف إليها" وتحت هذا الباب وفي الفصل الأول منه نجد: "فصلاً في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها في الاتساع، والاستواء، والبعد، والغلظ، والصلابة، والسهولة، والحزونة، والارتفاع والانخفاض وغيرها مع ترتيب أكثرها عن الأئمة وقال عن الأرض: "إذا اتسعت الأرض ولم يتخللها شجر أو نخر فهي الفضاء والبرّاز والبرّاح ثم الصحراء والعراء، ثم الرّهاء والجهراء، فإذا كانت مستوية مع الاتساع فهي الخبث والجّدّد... وهلم جرا" 25 .

والظاهر أن هذا النوع من التأليف قدرت له الحياة واستمر إلى اليوم لاستحسان المؤلفين المتأخرين له، ومن ذلك المعجم الرّافد لصاحبه أمين آل ناصر الدين * وهو "معجم لغوي للإنسان والحيوان والطير والهوام وكل ما في السماء والأرض" جمعه بجزئين واقتفى في تأليفه طريقة الأقدمين، ففي المطلب الأول: من الجزء الأول من الكتاب حديث عن تكوّن الإنسان، وأطوار حياته، وحواسه الخمس، وبعض مزاياه كالطول والقصر، القوة والضعف،

الجمال والشناعة.. وفي المطلب الثاني: أعضاء الجسم وعظامه وعروقه وعَصَبُهُ وما إلى ذلك، وفي الجزء الثاني للكتاب من المطلب الأول حديث مستفيض عن السماء والأرض من [ص 75 إلى 98] "26.

وفي العصر الحاضر نرى هذا الاتجاه في التأليف قد اكتسب طابع الاختصاص، ووجد من يفرد مواضيع بتامها في مؤلفات: كمعجم علم النفس الاجتماعي، والمعجم العسكري، ومعجم المصطلحات النحوية، والمعجم الطبي، والمعجم الفلسفي.. وهكذا استقلتّ المواضيع بمؤلفات بعد أن كانت فصولاً متفرعة عن أبواب يحويها كتاب..

المعجمية وخصائصها

- الكيان السياسي العربي الناشئ حريص الحرص كله على تحذير دعائم الدولة ومملكها المتسع الأرجاء، المتنوع الألسن والثقافات على أساس انتبائي هويته اللغة: الرابطة الجامعة للمشاعر والأفكار والعواطف، ومقتضى ذلك يستوجب تثبيت الأصل اللغوي ابتداء، وتعجيمه ليكون سياجا واقيا للعربية لغة الدين والدنيا معا.
- موسوعية المادة اللغوية المستجلبية من بيئات شتى يستدعي تعزيزها بالشواهد التوضيحية والاستشهاد لها بما يرسخ نسبتها، ويؤكد على نجرها العربي الأصيل، وهذا نحو من مناحي المعيارية التي نشأت أول أمرها مرتكزة على توصيف اللسان بطريقة صرفة مصدرها الاستعمال الحرفي المحض، فجمعت المعاجم بين الوصفية ابتداء، والمعيارية انتهاء.
- جمعة اللغة وقفوا من المتحدثين باللسان العربي موقفا تلمذيا يقوم على جمع المادة وتأثر تصاريفها في حقول الاستعمال اليومي، أما مُعجِّمة المادة اللغوية وضعونا أما هوية لغوية تاريخية أريد لنا من خلالها أن نقف على طرائق الكلام، ومآتيه على ألسن الأوائل الناطقين بها عفوا صفا، ولكن تبقى دوما بعض المسائل في اللغة عالقة يصعب الإلمام بها من دون عرض ومشافهة.

• دخل جمعة اللغة من أصحاب الكشكولات اللغة من باب الوصف، هادفين إلى المعيارية، كما لم يزعم أحد منهم الإحاطة بجملة كلام العرب، كما يعتبر اجتهاد الخليفة عثمان في حرق المصاحف زمنه – إن ثبتت الرواية – لتثبيت لغة القرآن نعمة على الكتاب الكريم، إلا أنه في باب اللغة بعامة حرماننا من منظومة لهجية لقبائل عربية شتى، وكان يمكن لو قدر لهذه الثروة الاستمرار أن تفتح لنا آفاقا لغوية لا حصر لها، وتوفر على جمعة اللغة الكثير من عناء البحث، والاقتصاد في الوقت والجهد، ولربما اتجه البحث اللغوي ومن ضمنه الدرس النحوي اتجاها غير الاتجاه الذي ساره، وتبرمج على وقعه.

الهوامش :

- (1) - العمدة في صناعة الشعر. ابن رشيق القيرواني. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط (1). 2000م . ج 1/137. وص 139.
- (2) - الخصائص. ابن جني. دار الكتاب العربي. بيروت. ج 1/206 وما بعدها.
- (3) - الاقتراح. السيوطي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. طبع (1). 1998. ص 116.
- * - يونس بن حبيب من الطبقة الخامسة من نحاة البصرة (ت 182 هـ) وقد قارب المائة. [ينظر طبقات النحويين واللغويين. الزبيدي. ص 51].
- (4) - المزهر. السيوطي. دار الفكر/ دار الجيل بيروت. لبنان. ج 2/304.
- (5) - البيت كما في الكتاب لأمية بن أبي الصلت. وقال المحقق الفرجة بالفتح هو الانفراج في الأمر، وبالضم الشق فيما يرى ويحس، والعقال بالكسر جبل تشد به قوائم الإبل. [ينظر الكتاب. سيبويه. تح. وشرح عبد السلام محمد هارون. ط. (2). مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع. القاهرة. مصر. ج 2/108 و 109].
- (6) - طبقات النحويين واللغويين. الزبيدي. تح. محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. مصر. 1973م. ص 35.
- * - يحيى بن يعمر كان عالما فقيها، عده الزبيدي في الطبقة الثانية من أعلام البصرة، روى عن ابن عمر وابن عباس.. وأخذ النحو عن أبي الأسود، عالما بالغريب من التابعين من القراء من أهل البصرة توفي (129 هـ). أما عنبسة الفيل بن معدان أخذ عن أبي الأسود، أما ميمون الأقرن فقد أخذ عن أبي الأسود وهو في الطبقة الثانية من نحاة البصرة، أما نصر بن عاصم الليثي قال الزهري إنه ليفلق بالعربية تفليقا، وذكر ابن سلام أن نصر بن عاصم أخذ عن يحيى بن يعمر، من الطبقة الثانية لنحاة البصرة [ينظر طبقات الزبيدي. ص 28 و 29 و 30].

زنگنه، أحمد

- (7) - المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي. د. عز الدين إسماعيل. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. مصر. ص 293 وما بعدها، وينظر مقدمة الصحاح. ص 290.
- * - لم يطلق على المعجم اسم المعجم إلا في أواخر القرن الرابع الهجري، أما قبل ذلك فهو كتاب، وأول معجم بهذا الاسم هو معجم مقاييس اللغة. ينظر: الدراسات اللغوية عند العرب. محمد حسين آل ياسين. ص 222.
- (8) - مقدمة الصحاح. أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت. طبع الثانية. 1979 م. ص 38.
- (9) - ينظر مقدمة الصحاح ص 28. ص 48 عن ياقوت الحموي. ج 1/108. وكشف الظنون ج 2/107.
- * - وأقرب صلة بهذا المعنى مؤلف هبة بن علي المعروف بابن الشجري (ت 542 هـ) في كتابه " ما اتفق لفظه واختلف معناه " وهو معجم لغوي للمشارك اللفظي وضعه المؤلف مرتبا بحسب الحرف الأول للكلمة، ولم يراع فيه الجذور اللغوية، لكنه اعتمد اللفظة المفردة بمعانيها المختلفة، واستعان ببلوغ هدفه بطائفة كبرى من الآيات، والأحاديث، والأشعار، والأمثال، والأقوال " عن المؤلف. والكتاب بتحقيق [أحمد حسن سبيح. دار الكتب العلمية. بيروت. طبع (1). 1996 م. ص 04].
- (10) - ضحى الإسلام. أحمد أمين. دار الكتاب العربي. بيروت. طبع 1974 م. ج 2/263.
- (11) - علم الدلالة. أحمد مختار عمر. دار العروبة للنشر والتوزيع. الكويت. طبع (1). 1982 م. ص 224.
- (12) - ينظر مقدمة ابن خلدون. ج 2/1062. وكتاب العين. حكمت كشلي فواز. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1996 م. ص 35 وما بعدها.
- * - يقال أن " أول من جمع في هذا الفن شيئا، وألف فيه أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت 210 هـ)، فجمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتابا صغيرا إذا أوراق معدودات، ولم تكن قلته لجعله بغيره من غريب الحديث وإنما كان ذلك لأمرين: أحدهما أن كل مبتدئ لشيء لم يسبق إليه، ومبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه، فإنه يكون قليلا ثم يكثر وصغيرا ثم يكبر، والثاني أن الناس يومئذ كان فيهم بقية عندهم معرفة فلم يكن الجهل قد عمّ، ولا الخطب طمّ .. ألفه في القرن الثاني ثم ألف بعده غيره تحت نفس العنوان: أبو عمر الشيباني (ت 206 هـ)، وقطرب (ت 206 هـ)، والفراء (ت 207 هـ)، والأصمعي (ت 213 هـ)، [ينظر الدراسات اللغوية عند العرب. محمد حسين آل ياسين. ص 154]. وينظر طبقاتهم في كتاب الفهرست. للنديم تحقيق رضا تجدد. طبع. مصر. ص 96.
- (13) - معجم مقاييس اللغة. ابن فارس. تحقيق. عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. ج 1/5.
- (14) - مقدمة الصحاح. أحمد عبد الغفور عطار ص 05.
- (15) - المزهر. السيوطي. ج 1/96 وينظر مقدمة. ابن خلدون. ج 2/3601.
- * - ينسب إلى نصر بن عاصم وضع الترتيب الألفبائي، ويقال أنه أخذه عن أبي الأسود.
- (16) تاريخ آداب العرب. الرافعي. دار الكتاب العربي. لبنان. الطبعة الرابعة. 1974 م. ج 1/189.

الاتجاه المعجمي نحو ترسيخ العربية

- (17) - المعجم المفصل في الأدب. محمد التونجي. دار الكتب العلمية. لبنان الطبعة الأولى. 1993 م. ج 1/ 126.
- (18) - مقدمة. ابن خلدون. تح السعيد المندوه. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. 1996 م. ج 2/ 3601.
- (19) - شرح ديوان. حسان بن ثابت. تح. همامة يحي الكعلي. دار الفكر العربي. بيروت. الطبعة الأولى. 2003 م. ص 188 والقصيدة ومطلعها: **أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبَّعَ الْجَدِيدَ التَّكَلَّمَ بِمَدْفَعِ أَشْدَاخِ فَبَرَّةٍ أَظْلَمًا.**
- (20) - طبقات النحويين واللغويين. الزبيدي. ص 108.
- (21) - ينظر ديوان المتنبي. دار بيروت. 1980 م. ص 19. وأسرار البلاغة. الجرجاني. مطبعة المدني بالقاهرة. الطبعة الأولى. 1991 م. ص 233.
- (22) م. نفسه.
- (23) معجم متن اللغة. محمد رضا. ج 5/ 718. مادة (وحد).
- * - النضر بن شميل عده صاحب الطبقات من أعلام الطبقة السادسة من نحاة البصرة وذكر أنه لما " خرج يريد خراسان فشيعة من أهل البصرة نحو ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا محدث أو لغوي أو نحوي أو عروضي أو أخباري.. وكان صدوقا ثقة، وقد روي عنه الحديث وكان صاحب حديث وغريب وشعر وفقه ومعرفة بأيام الناس " [طبقات النحويين واللغويين. الزبيدي. ص 51 و ص 61]
- (24) كتاب الفهرست. للنديم. تحقيق. رضا تجدد ج 1/ 57 وما بعدها. وينظر ج 3/ 85.
- (25) _ فقه اللغة. الثعالبي. دار مكتبة الحياة. بيروت. لبنان. ص 184.
- * - أمين ناصر الدين (1875 - 1953) ولد في قرية " كفر متى " ببلبنان ... أخذ مبادئ العربية عن والده ثم عكف على مطولاتها مستقريا مخلصا.. صار إمام اللغويين وحجتهم في عصره، جمع بين الشعر والنقد اللغوي، والتأليف الروائي، كما عمل في الصحافة والتعليم ردا من عمره .. وأقام مدرسة المعارف. [ينظر اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي. درياض قاسم. مؤسسة نوفل. بيروت. لبنان. ص 565.]
- (26). الرافد. أمين ناصر الدين. مكتبة لبنان. ساحة رياض الصلح. بيروت. طبع. (1). 1971 م. ص 75 وما بعدها.

ذخوان أمحمد
